المـقــال التـحــلـيـلي

اللقاء الفلسطينيّ اليهوديّ في سبيل ترسيخ الوضع القائم

د. رباح حلبي*

فرضت النكبة في عام 1948 واقعًا جديدًا على الفلسطينيّين الذين بقوا تحت الحكم الإسرائيليّ. فمنذ تلك السنة حتّى عام 1966، عاش الفلسطينيّون تحت الحكم العسكريّ، ممّا أدّى إلى نشوء علاقة إشكاليّة بينهم وبين المحتلّ اليهوديّ أبدع في وصفها الكاتب الراحل إميل حبيبي في رائعته "المتشائل". حاولت السلطة، منذ اللحظة الأولى، اجتثاث الفلسطينيّ وسلخه عن جذوره وتاريخه وشعبه وخلق عربيّ إسرائيليّ. أفرزت تلك الحقبة العصيبة صدمةً وضياعًا لدى الفلسطينيّين الذين رضخوا في غالبيّتهم "لليهوديّ الجبّار الذي لا يُقهر"، وصبغت العلاقة اليهوديّة الفلسطينيّة في تلك الفترة بعلاقة السيّد بالعبد. انصاعت الأغلبيّة الفلسطينيّة لأوامر "السيّد" (وفي الغالب كان ذاك من خلال عدم الوعي والتقليل من شأن النفس)، لكن كان ما ميّز تلك العلاقة الرغبة في البقاء والعيش، وإن كان الثمن هو التنازل عن الكرامة آنيًّا. بعد حرب العام 1967، أعاد اللقاء مع الإخوة الفلسطينيّين في الضفّة والقطاع الروح للفلسطينيّين في الداخل، وأخذوا يعودون إلى رشدهم وإلى هُويّتهم. على مرّ السنين، أعاد الفلسطينيّون في الداخل بناء هُويّتهم الفلسطينيّة وبَلْوَرتها، وهو ما حدا بالمؤسّسة (حزب "مباي" -على وجه التحديد) إلى محاولة إعادة العجلة إلى الوراء عن طريق مشروع أسْرَلة من نوع آخر هذه المرّة، تضمّن إلقاء بعض الفتات لقسم من النخبة الجديدة التي بدأت تتطوّر في تلك الفترة، وذلك بغية إشاعة جوّ من الشعور بالدمج في مَرافق الدولة وقطع الطريق على تضامنهم مع شعبهم وعملهم من أجله.

كان من إفرازات تلك الإستراتيجيّة مشروع "التعايش اليهوديّ العربيّ" الذي بدأ في أوائل السبعينيّات وما زال على قيد الحياة حتّى أيّامنا هذه. استورد المسؤولون ذلك المشروع -فكرًا ونهجًا- من الولايات المتّحدة، حيث أقيمت منظّمات أجرت اللقاءات بين العرب واليهود، كان وما زال هدفها تكريس الواقع المَعيش ومنع تحقيق أيّ فرصة للتغيير. آنذاك، اقتصرت تلك اللقاءات على اليهود والفلسطينيّين داخل إسرائيل، وشملت الفلسطينيّين في الضفّة وقطاع غزّة منذ اتّفاقات أوسلو. تهدف هذه اللقاءات -في معظمها- إلى التفاهم والتقارب، وترمي -في نهاية المطاف- إلى تفهُّم الجانب المقموع للجانب القامع ولتخوّفاته، وهو ما يؤدّي إلى التطبيع وإبقاء الحال على ما هو عليه. ذلك ليس بغريب إذا أخذنا في الحسبان أنّ "مشروع

التعايش" جاء على أثر حاجة اليهود إلى ذلك، وأنّ هذا المشروع يموّله -في الأساس- يهود، وأنّ المسؤولين عن جميع منظّمات "التعايش" هم يهود، وعندما يطالب الفلسطينيّون بالمساواة وبالشراكة الحقيقيّة في تلك المنظّمات تتأزّم الأمور إلى حدّ انحلال المنظّمة أحيانًا، على الأرجح، أو استبدال الفلسطينيّين بآخرين، إلى أن يستبدلوا هم بآخرين؛ وهكذا دواليك...

في بداية المشروع، اعتمدت جميع المنظّمات طريقة علم النفس العلاجيّ التي تركّز على العلاقات الفرديّة والعلاقات الإنسانيّة، مُقْصِيةً القضايا الخلافيّة والأمور التي في لبّ الصراع بين الشعبين من أجِنْدة "التعايش". فالمهمّ هو التفاهم. المهمّ أن يتعاطف اليهوديّ مع الفلسطينيّ المقموع، وأن يتعاطف الفلسطينيّ مع مخاوف اليهوديّ التي تَضطرّه أن يكون قامعًا، "وكان الله بالسرّ عليمًا". مع مرّ السنين، ومع ارتفاع مستوى الوعي عند الكوادر الفلسطينيّة العاملة في هذه المنظّمات، وبسبب إصرارها وإلحاحها، جرت بعض التغييرات على طبيعة اللقاء، حتّى إنّ بعض المنظّمات الأكثر راديكاليّة بلغت حدَّ إجراء حوار بين الهُويّات، حيث يكون مركز الحوار هو الصراع الفلسطينيّ اليهوديّ بكلّ مركّباته وعوامله الجغرافيّة والتاريخيّة والسياسيّة. رغم ذلك، ينبغي التأكيد أنّه ليس لهذه اللقاءات -بمختلف أشكالها- أيّ تأثير على الواقع الذي نعيشه، بل لربّما كان التأثير في الاتّجاه السلبيّ حيث تعطي تلك اللقاءات الشعور بأنّ هناك حِراكًا مستمرًّا في قضيّة الصراع، والأنكى من ذلك أنّ تلك اللقاءات تشكّل وصفة سحريّة لليهود القائمين عليها لتنقية الضمير ورفع العتب. وإذا كان لها تأثير إيجابيّ، فلربما كان التأثير الإيجابيّ الوحيد والأوحد لهذه اللقاءات في الفلسطينيّين هو بَلْوَرة الهُويّة ورفع مستوى الوعي عند المشاركين الفلسطينيّين فيها، في أعقاب مواجهة العنصريّة اليهوديّة وجهًا لوجه وعن كثب.

من خلال عملي في المجال بضعًا وعشرين سنة، ومن خلال مراقبة العلاقات بين الطواقم التي عملتُ معها من جهة، وتصرّفات المشاركين في المجموعات التي أرشدتها من جهة أخرى، ومن خلال عدّة أبحاث أجريتها في الحقل، وصلت إلى القناعات التالية:

1 - الحركة الصهيونيّة هي حركة كولونياليّة في ماهيّتها؛ ومن هنا فإنّ ما يحسم العلاقة اليهوديّة والفلسطينيّين في الداخل والخارج منظومة كولونياليّة محضة. فكما جاء على لسان إدوارد سعيد، في كتابه "الثقافة والإمبرياليّة"، القضيّة الأساس هي احتلال الأرض، ولكن لا يقل عن ذلك السيطرة على الخطاب لتسويغ الاحتلال والحفاظ عليه. اليهود احتلّوا الأرض، لكن هم عملوا جاهدين -وما زالوا- لاحتلال العقل الفلسطينيّ، وللسيطرة على الخطاب وإقناع أنفسهم والآخرين بأنّهم أصحاب حقّ وأصحاب هذه الأرض. بل هم يعتبرون أنفسهم المنقذين الذين أتوا إلى المنطقة كي يشيّدوها ويُخْرِجوا مَن سكنها مِن الظلمة إلى النور. فالصراع، إذًا، ليس صراعًا على الأرض فحسب، بل هو صراع حضاريّ كذلك. فاليهود يعتبرون أنفسهم متحضّرين وأصحاب القيم السامية والضمائر الصاحية، ويعتبروننا -نحن الفلسطينيّين- همجًا ومصّاصي دماء عديمي الأخلاق والضمير، ولذلك إذا حُكِم علينا العيش معًا ينبغي أن يكونوا هم المسيطرين، وإلاّ كان مصيرهم أن يُطْرَحوا في أعماق البحار. من هذا المنطلق، لا يستطيع اليهود القيّمون على منظّمات "التعايش" تحمُّل وجود فلسطينيّ مديرًا حقيقيًّا بكل معنى الكلمة. هم

يتقبّلوننا في العادة كـ "شكلة"، أو حينما نتنازل عن هُويّتنا ونصبح مثلهم كما قال فرانتس فانون في كتابه "وجوه سوداء وأقنعة بيضاء". أمّا إن أراد المدير الفلسطينيّ أن يزاول مَهامّه، فإنّ الدنيا ستقوم ولن تقعد. لي تجربة قاسية في هذا الصدد مع "اليساريّين واليساريّات" في واحة السلام. ابتغاءَ التأكيد، نقول إنّ هذه الظاهرة من العنجهيّة والتعالي (بل العنصريّة) شائعة أو متفشّية أكثر لدى اليهود الغربيّين، ولا سيّما أولئك الذين ينعتون أنفسهم باليساريّة، ولا نكاد نجدها لدى اليهود العرب، الذين ينتمون في غالبيّتهم إلى اليمين (مَرَدُّ ذلك إلى أسباب اقتصاديّة اجتماعيّة لا مجال هنا للخوض فيها).

2 - هناك ظاهرة أخرى تنبع وتتأتّى من السابقة ينبغي أن نقف عندها لأهمّيّتها. حين تتغيّر موازين القوى -وإنْ على نحوٍ طفيف (كالذي يحدث حين يقوى خطاب المشاركين الفلسطينيّين في اللقاء، عندما يطالبون بحقوقهم بنبرة الواثق صاحب الحقّ)- حينذاك يشعر اليهود أنّ الفلسطينيّين قلبوا الآية وسيطروا على الموقف. يشعرون وكأنّ وجودهم وهُويّتهم في حالة خطر، لا لشيء إلاّ لأنّ الفلسطينيّين يحاولون تغيير موازين القوى تغييرًا طفيفًا ويطالبون بالمساواة. ذلك بالضبط ما حدث حسب رأيي في أكتوبر عام 2000 في الواقع؛ فخروج الفلسطينيّين في إسرائيل للتظاهر من أجل الحصول على حقوقهم المهضومة دَبَّ في الشارع الإسرائيليّ حالة من الرعب كما بدا في وسائل الإعلام، بل إنّ بعضهم شعر أنّ الدولة في خطر حقيقيّ. ذلك إن دلّ على شيء يدلّ أنّ هُويّة اليهود - وبالتالي الدولة اليهوديّة- مبنيّة في الأساس على السيطرة على الفلسطينيّين، بل على العرب، بل على الشرق بأجمعه. عندما تصبح هذا السيطرة والهيمنة في حالة خطر، يشعر اليهود أنّ هُويّتهم وكيانهم مهدَّدان، وكأنّه ليس ثمّة مقوّمات ولا وجود لتلك الهُويّة ولذلك الكيان دون السيطرة على الآخر والهيمنة على المنطقة بأسرها. من هذا المنطلق، يمكن فهم الممانعة الشديدة بل الوسواس في ما يتعلّق ببناء إيران مفاعلاً نوويًّا، فهذه الإمكانيّة تحدّ من سيطرة إسرائيل المطلقة على المنطقة، وتخلق نوعًا من التوازن والتساوي في القوى، وذاك ما قد يخلق حالة من الاستقرار ويفرض السلام والمساواة. لكن وضعيّة التوازن (أو حتّى شبه التوازن) يعتبرها الشارع اليهوديّ الإسرائيليّ حالة ضياع (إن لم نقل: انتحارًا ونهايةً للكيان الصهيونيّ- الإسرائيليّ). كما أسلفنا، هذا الكيان وهذه الهُويّة الكولونيوليّة ينعدمان ويذوبان إن انعدمت السيطرة على الآخر.

من خلال العمل ومشاهدة مئات اللقاءات، لاحظت منظومة تعود على نفسها في اللقاء الفلسطينيّ-اليهوديّ. في المرحلة الأولى، ثمّة فحص متبادل وترقُّب. في المرحلة الثانية، تتقوّى المجموعة الفلسطينيّة إذ يتّضح خطابها وتضع النقاط على الحروف. في المرحلة الثالثة، ترفض المجموعة اليهوديّة تقبُّل الفلسطينيّ الجديد وتحاول تحجيمه وإعادته ليكون "العربيّ الإسرائيليّ". في المرحلة الرابعة، المجموعة الفلسطينيّة ترفض العودة إلى الوراء، فتتفجّر الأمور ويحتدم الصراع. في المرحلة الخامسة والأخيرة، يتطوّر حوار حقيقيّ على مستقبل العلاقات بين الشعبين، وذلك بعد أن تتقبّل المجموعةُ اليهوديّةُ المجموعة الفلسطينيّة بهُويّتها الجديدة على كلّ ما يترتّب على ذلك.

في اعتقادي، هذه كانت المنظومة التي حكمت علاقات الفلسطينيّين الذين بقوا في البلاد باليهود والدولة العبريّة منذ قيامها حتّى اليوم. الفترة الممتدّة بين عام النكبة 1948 وعام 1966 (حين رفع الحكم العسكريّ عن الفلسطينيّين) كانت فترة الصدمة، مرحلة ترقُّب وفحص متبادل من الطرفين. منذ عام 1967، بسبب رفع الحكم العسكريّ وبسبب اللقاء المتجدّد مع أبناء الشعب والأهل في الضفّة والقطاع، بدأت في الظهور مرحلةُ بناء الهُويّة الفلسطينيّة من جديد في الداخل. في هذه الفترة، حاول الفلسطينيّون في الداخل ترميم الكرامة المفقودة والاعتداد بالنفس من جديد. تلك كانت نقطة الانطلاق لرصّ الصفوف بغية رفع المعنويّات والاستعداد لمواجهة السلطة -"البعبع" الذي طالما خفنا رفع رؤوسنا أمامه في الفترة السابقة-. فكان يوم الأرض في العام 1976، وجاءت بعده الانتفاضة في العام 1987 فألهبت حماسة مَن في الداخل ورفعت معنويّاتهم، فلأنّنا أبناء الشعب الواحد ما يصيبهم يؤثّر فينا سلبًا أم إيجابًا. وجاء بعدئذ استبسالُ حركة حزب الله في لبنان التي أرغمت الجيش الذي لا يُقهر أن يهرب "في ليلة ما فيها ضوّ قمر". وكل ذلك صبّ في زخم المواجهات في أكتوبر عام 2000، التي راح ضحيّةً لها ثلاثة عشر شهيدًا، إثر ردّة الفعل الهستيريّة والهمجيّة من قبل اليهود ممثّلين بالشرطة وبالحكومة. ردّة الفعل الوحشيّة وما أعقبها من تحريض علينا تشير إلى أنّنا الآن في المرحلة الثالثة، المرحلة التي يحاول فيها اليهود إعادتنا إلى الوراء، إلى "العرب الإسرائيليّين الطيّبين". كما سبق أن رأينا من خلال اللقاءات المبرمجة، هذه المحاولات التي تقوم بها السلطة سوف تبوء بالفشل، وسوف ندخل فترة شائكة وعسيرة، مرحلة صدام أشدّ وأعظم ممّا كان حتّى الآن، ومن بعدها سوف يأتي الفرج.

العلاقة بين اليهود والدولة والفلسطينيّين في الداخل هي مؤشّر لماهيّة العلاقة بين اليهود والفلسطينيّين بشكل عامّ، بل بين اليهود والمحيط العربيّ الذي يعيشون ضمنه. من هذا المنطلق، لا أعتقد أنّه في المستقبل القريب سوف يكون ثمّة أمل في الوصول إلى معادلة سلام ووئام حقيقيّين بين الشعبين. قد تقوم دولة فلسطينيّة هزيلة على أقلّ من 20% من مساحة فلسطين، بَيْدَ أنّ هذا لا يشكّل حلاً للصراع المزمن. الحلّ الوحيد الممكن لهذا الصراع مشروط بتغيُّر العقليّة اليهوديّة (وعلى نحوٍ أدقّ: تغيير العقليّة اليهوديّة الغربيّة)، وبالتنازل عن العنجهيّة وعن النزعة الكولونياليّة، وبمحاولة التقألم مع المحيط حضاريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وأخلاقيّا بدل المحاولة الدؤوبة للسيطرة على المنطقة. في هذه الحالة، لا في سواها، سوف نتقبّلهم بيننا، وسوف نتوصّل إلى وضع منظومة علاقات منصفة ومتساوية. في هذا المسار، الذي يبدو مستحيلاً في الزمن الراهن، قد يكون لليهود العرب دَوْرٌ مهمّ، بل الدَّوْر الأهمّ.

***د. رباح حلبي** - محاضر في قسم التربية في الجامعة العبريّة في القدس ومن مؤسّسي جمعيّة الصوت